

التربية المدرسية والطفل School Education And Children

حاجة بن ناصر

جامعة ابن خلدون – تيارت- (الجزائر)، hadja.bennaceur@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/25 تاريخ القبول: 2023/07/05 تاريخ النشر: 2023/07/31

ملخص:

تعتبر المدرسة مؤسسة اجتماعية تهدف إلى تربية جيل واع، حامل لرسالة إنسانية نبيلة وتهيئته كمواطن صالح في المجتمع، وستجد التربية المدرسية باعتبارها فنا بيداغوجيا مكانها داخل هذا الحيز كصورة مصغرة للمجتمع، ولقد اعتبر فيلسوف الأنوار كانط التربية المدرسية جزءا من إستراتيجية التغيير الثقافي والأخلاقي باعتبار التربية هي ما يصنع الإنسان بذاته وفق قصديته وغايته، فكيف يمكن للتربية المدرسية أن تُعد أطفالا مؤهلين للاندماج في المستقبل ومسايرة العصر؟ أو بعبارة أدق هل التربية المدرسية قادرة على تحقيق إنسانية الإنسان الكوني؟
كلمات مفتاحية: التربية المدرسية، البيداغوجيا، الإنسان الكوني، التغيير الثقافي والأخلاقي، الإنسانية.

Abstract:

The school is a social institution that aims to raise a conscious generation, carrying a noble human message, and prepare it as a good citizen in society. School education, as a pedagogical art, will find its place within this space as a microcosm of society. It is what makes a person by himself according to his intent and purpose, so how can school education prepare children who are qualified to integrate into the future and keep pace with the times? Or, more precisely, is school education capable of realizing the humanity of the universal human being?

Keywords : School, pedagogy, universal human, cultural and moral change, humanity.

1. مقدمة:

أولت المجتمعات والدول عموماً للتربية والتعليم دوراً بارزاً منقطع النظير لما لها من أهمية كبرى في عملية التنشئة الاجتماعية، والتنمية المستدامة وفي تكوين شخصية المتعلم، إذ تسمح بتحديد طبيعة العلاقة بين المتعلم وجماعته، وبين الطفل ومتطلبات الاندماج الاجتماعي، لدرجة أنه أضحت التربية معيار يقاس على ضوءه درجة تقدم وازدهار المجتمعات، باعتبارها عملية استثمارية في الجنس البشري وفي قدرات المرء منذ طفولته وبدايات تعلمه الأولى فبمقدار ما تستثمر الجهود والأساليب لتحقيق أهداف مسطرة وواضحة، بقدر ما تزداد احتمالات الكسب والتفوق، ولهذا اكتسب التمدرس طابعاً إلزامياً، وشكلت المدارس ركناً هاماً من أركان المجتمع لما لها من دور محوري بالنسبة للطفل والجماعة على حد سواء، فبالنسبة للطفل دخول المدرسة يفرض عليه اكتساب مهارات وقدرات ومعارف جديدة لم تزوده إياها الأسرة من قبل، إنها تجربة جديدة وعالم جديد بالنسبة إليه وهذا التغيير لا يشمل الجانب المعرفي فحسب بل حتى العاطفي والجسدي.

وجاءت ورقة عملي البحثية هاته لتبيان دور التربية والمدرسة تجاه الطفل، وكشف إسهامات التربية المدرسية في إحداث تغيرات في مختلف الأصعدة، وفي تحقيق حياة مشتركة تنميتها بحاجة إلى تربية أجيال واعدة، فكيف ستسهم البرامج التعليمية والمناهج الدراسية في تنمية قدرات وكفاءات الطفل من أجل تحصيل معرفة عملية وسياسية تمكنه من قبول الآخر؟ وكيف يمكن للتربية المدرسية أو بالأحرى المدرسة بوصفها مؤسسة تربوية أن تُعدّ أطفالاً مؤهلين للاندماج في المستقبل ومسايرة العصر وتقبلاته؟.

جذور التربية عميقة وقديمة قدم الإنسانية، فلقد اتسعت معانيها وتنوعت بتنوع الشعوب، وتعدد الأمم فلا يمكن لأي فلسفة أن تؤسس نظاماً تربوياً دون أن يكون منسجماً مع ما يحدد أطرها الثقافية والمعتقدات السائدة فيها، لذلك أولى التربويون اهتماماً بالغاً بالعناصر المختلفة للعملية التربوية من منهاج، متعلم، معلم، وبيئة تعليمية وبالمنظم

التربوية، كونها وسيلة لنقل التراث الثقافي والمحافظة عليه، وعلى القيم الاجتماعية السائدة مع ضرورة مواكبة التطورات والتغيرات الراهنة، بما فيها التكنولوجيا والرقمنة لضمان جودة التعليم ولخلق جيل متعلم، يسير الركب الحضاري، قادرا على خدمة مجتمعه وترسيخ الجودة والكفاءة وكذا الديمقراطية.

فلا بد من الاعتراف بأن منحى البرامج التعليمية والمضامين المعرفية لأي بلدة أو دولة تتجه نحو خدمة ما تصبو إليه مؤسساتها من أهداف، ولنا في جمهورية أفلاطون أحسن مثال على ذلك، وكذا فلسفة التربية لإمانويل كانط، وجون ديوي وغيرهم من كبار الفلاسفة الذين أرادوا أن يحدثوا التغيير بالتربية، وسأركز على النموذج الكانطي لكن قبل ذلك ما المقصود بالتربية عموما؟ والتربية المدرسية بصفة خاصة؟ وما دور المدرسة بالنسبة للطفل؟ ومن ثم كيف يمكن وضع التربية المدرسية موضوعا للمساءلة والتحليل والنقد؟.

2. في معنى التربية:

في اللغة العربية: لفظة التربية من رَبَّأ: بمعنى نَامَا وَرَبَّى بمعنى نشأ وترعرع، وَرَبَّ: بمعنى أصلح وساس ورعا وتولى.

وفي المعجم الفلسفي: "التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئا فشيئا، نقول: رببت الولد، إذ قويت ملكاته ونميت قدراته، وهذبت سلوكه حتى يصبح صالحا للحياة في بيئة معينة"¹، فالتربية بهذا المعنى هي نشاط إنساني هادف إلى تحصيل معارف وتنمية قدرات، الإنسان المختلفة من حيث الملكات الذهنية والسلوك، وبناء شخصية المتعلم، وهي وسيلة وهدف في آن واحد،

¹ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، 1978، ص266.

فردية واجتماعية، فردية كونها تخص كل فرد بعينه فهي حق وواجب، واجتماعية تخص المجتمع وحصيلة لما هو اجتماعي من معتقدات وقيم ومبادئ.

وفلسفيا ربط أفلاطون في محاوره الجمهورية بين التربية والعدالة والقوانين، وأن تحقيق العدالة باعتبارها الفضيلة المثلى هو بحثا في أفضل تربية، وبهذا يضع أفلاطون تبعية السياسة لتبعية التربية ومن ثم خدمة التربية للنظام السياسي "إن التعليم في الحقيقة هو إعداد الأطفال وتوجيههم نحو المبادئ والقواعد التي أعلن القانون صوابها، والتي ثبت صوابها الحق عن طريق اتفاقه مع تجربة أفضل الرجال وأكبرهم سنا".²

وفي نظر كانط إن إنسانية الإنسان كهدف أمثل وغاية أسى لن تتحقق إلا بفضل التربية، فما ينقل الإنسان من الحالة الحيوانية إلى دائرة التحضر ومن الحالة الطبيعية إلى حيز الثقافة هو التربية "إن الإنسان لا يمكن أن يصير إنسانا حقا إلا بالتربية، إنه ما تصنع منه التربية"،³ ويعتبر كانط أن حسن أو سوء التربية ما هو إلا نتيجة حتمية لصلاح أو فساد المربي على حد سواء، ومن ثم فشل المشروع التربوي وتدني المستوى لدى الأطفال والمتعلمين، ولو وجد كائنا متميزا من طبيعة فائقة كما يرى كانط لاستطاع أن يعد جيلاً ناشئاً قادراً على تحقيق معايير التربية وغاياتها وكفاءاتها المستهدفة، ومادامت الجهات المعنية بالتربية أو ما يعرف بالمربون أنانيون في نظره فإنهم غير قادرين على بلوغ درجة الكمال التربوي "وجدير بالملاحظة على حد سواء بالنسبة إلى ذهن تأملي أن يرى أغلبية أولى الأمر لا يفكرون أبداً إلا في أنفسهم، ولا يشاركون أبداً في التجربة الخطيرة للتربية حتى تخطوا الطبيعة خطوة أكثر نحو الكمال".⁴

² أفلاطون: القوانين، تر: محمد حسن ظاظا، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1986، ص 134.

³ إيمانويل كانط: تأملات في التربية، تر: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، صفاقص، تونس، ط 1، 2005، ص 14.

⁴ المصدر نفسه، ص 14.

ومع ذلك يمكن تدارك النقص والوعي بما أهمل من قبل من جهة الانضباط وكذا الثقافة، وسر كمال الطبيعة البشرية يكمن في التربية، وأن تبني على منطلقات سليمة وصحيحة، ومخطط يتوافق مع غاية الإنسان والإنسانية ومثلما نزرع البذور ونجني الأزهار بألوان مختلفة كذلك "هنالك الكثير من البذور لدى الإنسانية، وإنها لمهمة منوطة بعهدتنا أن ننمي الإستعدادات الطبيعية تنمية متوازنة، وتطور الإنسانية ابتداء من مبادئ نموها، ونعمل على أن يدرك الإنسان غايته".⁵

ولا تتم التربية دفعة واحدة، ولا بصورة عشوائية بل هي منظمة ومقسمة تتحقق بالتدرج من جيل إلى آخر فيعمل كل جيل على تنمية تربيته وإصلاح نقائصها بالاستفادة من تجارب الأجيال السابقة عنه، فينتقي منها ما هو مفيد، ويرمم ويصحح ما هو ضار للإنسان، وأساس عملية الانتقال والتصفية إنما هو العقل، فالتربية فنا قبل أن تصبح سلوكا وممارسة "إذا لابد لفن التربية أو البيداغوجيا من أن يصبح قائما على النظر والتفكير (أو الروية) إذا أراد تنمية الطبيعة الإنسانية بحيث تبلغ غاياتها".⁶

إن الهدف من التربية في نظر كانط هو هدف مستقبلي وكوني في آن واحد، فالتربية التي يقصدها لا تقتصر على جنس محدد أو معمورة خاصة ولا زمان معين، وهو ما يعكس الفلسفة الكانطية المتميزة بالشمولية والكونية ومن ذلك مشروع السلام الدائم وأخلاق الواجب، ولقد اعترف فيلسوف الكونية بقصور النموذج التربوي الذي كان سائد في عصره وإعترف بعدم تمكنه من بلوغ الغاية القصوى من التربية، ولا يهتم بالمستقبل بقدر ما ينظر

⁵ إيمانويل كانط: تأملات في التربية، تر: محمود بن جماعة، مصدر سابق، ص 14، ص 16.

⁶ إيمانويل كانط: تأملات في التربية، تر: محمود بن جماعة، مصدر سابق، ص 18-19.

في زمن الحاضر "ولهذا السبب فإنه من الضروري أن يتكيف التعليم مع مستقبل البشرية، ومع أفضل حالة للإنسانية وليس وفقا لحالتها الراهنة".⁷

3. التربية والمدرسة:

يشير لفظ المدرسة إلى جميع المؤسسات التي تجري فيها علميات التعليم كما تعمل المدرسة على تهذيب سلوكات الطفل وتنمية قدراته العقلية وقواه الجسدية ومهاراته وكفاءاته الاجتماعية، فهي بمثابة المرشد التربوي للطفل خاصة في مراحل تعلمه الأولى، وهي المؤسسة الثانية بعد الأسرة بوصفها المؤسسة الاجتماعية الأولى تساهم في إعداد الأجيال الناشئة من خلال ما توفره من برامج تعليمية ومناهج دراسية وأنشطة تعليمية تساعد على ذلك "إن المدرسة مؤسسة اجتماعية تقوم بعملية التعليم والتربية، وتعمل على إكساب التلاميذ المعرفة والمهارات والخبرات التي يحتاجونها في حياتهم الحاضرة والمستقبلية وتساعدهم على التفاعل مع بيئاتهم".⁸

ولا يخفى على المجتمع بأن المدرسة هي الحيز أو المكان الذي يجد المرء نفسه مجبرا على الانتماء إليها، ومع كانه التربية ليست خيارا للطفل أو الآباء ولا صدقة نجود بها على النشئ، ولا تقوم على أسس المنفعة أو المصلحة بل هي واجب لذاته، بها نميز الإنسان عن الحيوان ويقسم كانه التربية إلى قسمين "فالتقسيم الأول للتربية هو إلى:

1-ترويض، 2- تنوير، والتقسيم الثاني هو إلى: 1- تربية خاصة، 2- تربية عامة، والأول هو الذي يتم في البيت عن طريق الأسرة أو المربي الخصوصي والثاني هو الذي يتم في

⁷ Maxime Lebeuf : Le Sens De L'éducation Et De La Disipline Dans Le cadre De La Philosophie D'Emmanuel Kant, Mémoire Présenté A' L'université Du Québec A Troi -Rivières, Hiver, 1998 , p42.

⁸ ربيع محمد، طارق عبد الرؤوف عامر: الديمقراطية المدرسية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ط،

المدرسة"،⁹ والترويض في نظره للحيوانات ويمكن أن يكون للإنسان لكن التربية لا تتم عن طريق الترويض، وإنما عن طريق تعليم الطفل التفكير وتعليمه المبادئ التي تصدر عنها أفعال الإنسان.

وتتمثل التربية الأولية في الرعاية المادية للطفل من تغذية وعناية صحيحة، وهي تربية جسدية وتهدف إلى دعم النمو الطبيعي والخبرات الانفعالية لدى الطفل، وينعتها كانط بالتربية السلبية لكونها تتوافق مع ماهو طبيعي في الطفل ولا تخرج عن نطاقه، مع ضرورة التربية على الانضباط والامثال للقواعد للخروج من التوحش والحيوانية، واتجهت نصائح كانط في هذه المرحلة إلى الوالدين وإلى الأم بصفة خاصة، كأن تفضل راحتها على سلامة الطفل، وعدم تدليله ومنحه كل ما يرغب فيه ويطلبه، لأن ذلك سيعيق اندماجه في الحياة المدنية "وبوجه عام لابد من ملاحظة أن التربية الأولى تكون سلبية فحسب أي أنه ينبغي أن لا يضاف أي شيء إلى الاحتياطات التي اتخذتها الطبيعة، وأنه ينبغي فقط عدم إرباكها".¹⁰

وتستهدف التربية الجسدية للطفل دفعه إلى التعليم الذاتي وفق ما يتوافق وطبيعته بإعطاء ما ينفعهم وكبح ما يضره، ويتعارض مع القيم والمبادئ، لكن ليس من الضروري إرغامه على أمور وأفكار مجردة لا توافق مؤهلاته الذهنية ومعدل عمره، وفي هذه المسألة يتفق كل من كانط وجان جاك روسو في عدم الخوض في حوارات ذهنية مع الأطفال كي لا يدفعهم الفضول في التدخل ومناقشة كل ما يعترض طفولتهم، كما على المربي أن يشعرهم بضعفهم من أجل الامثال لما تفرضه عليهم التربية "ولا يمكن أن تكون قبل سن الرشد فكرة عن الموجودات المعنوية والصلات الاجتماعية، ويجب إذن اجتناب ما أمكن إستعمال

⁹ عبد الرحمان بدوي: فلسفة الدين والتربية عند كانت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص123.

¹⁰ إيمانويل كانط، تأملات في التربية، تر: محمود دين جماعة، مصدر سابق، ص33.

الكلمات التي تعبر عنها وذلك خشية أن يعلق الولد على هذه الكلمات في بدء الأمر أفكار فاسدة لا يُعرف أو يُستطاع القضاء عليها مطلقاً، وأول فكر فاسد يدخل رأسه هو الخطأ أو العيب".¹¹

وما نستخلصه هو أن كانط يلقي مهام التربية الأولية على عائق الأسرة وبالأخص الأم، وهي تهدف إلى التعليم الذاتي للطفل وتعدّه إلى مرحلة ثانية من التربية، وهي التربية المدرسية الهادفة إلى تكوين المهارات والقدرات الذهنية للوصول إلى درجة الكمال التربوي وهي التربية الخلقية والدينية كاسمى مراحل التربية، وكغاية قصوى لكل إنسان، وهي المرحلة الإيجابية من التربية مقابل المرحلة السلبية التي ذكرناها آنفاً.

فالمدرسة هي الوسيط الديداكتيكي الأكثر إسهاماً في التربية الراشدة لدى الطفل ومهمة التربية المدرسية هي تكملة التربية الأسرية المنزلية، ويميز كانط هنا بين نوعين من التعليم، التعليم الخاص والتعليم العام، ويفضل هذا الأخير عن الأول، كما يميز بين المربي والمعلم، فالتربية البدنية التي تتطلب سلطة أبوية هي تربية وليست تعليماً، تتطلب التربية الثقافية باعتبارها الجزء الإيجابي من التربية الجسدية، المدرس الخبير في تكوين القدرات الثقافية والعملية وينبغي أن تكون التربية الثقافية والمدرسية تربية عمومية تشرف عليها الدولة وتوجهها لتحقيق الغايات والأهداف المحددة سلفاً من قبلها.

ويقترح كانط فكرة المدرسة التجريبية ويمنحها الأسبقية على المدرسة العمومية لاختبار مصداقية ومدى نجاح المشروع التربوي أو إخفاقه، فالتجارب هي مقياس الحكم على صلاحية هذا المشروع، ولأن ما هو كائن قد يتناقض مع ما توقعناه وانتظرناه "وهكذا بما أن

¹¹ جون جاك روسو: إميل أو التربية، تر: عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، د.ط، 2015، ص 127.

كل شي يعود إلى التجربة نرى أنه ليس بمقدور أي جيل بشري أن يقدم مخططا مكتملا في التربية".¹²

وُعنَى التربية الخاصة في تلقين وتعليم المبادئ والقيم الأخلاقية، وتجمع التربية العمومية بين التعليم والثقافة الأخلاقية، ويطلق عليها اسم "معهد التربية".¹³

ولا يمكن بأي حال في نظر كانط إنجاز أكبر عدد ممكن من هذه المعاهد، ولا أن تحوي تعدادا مرتفعا من المتعلمين لأنها مكلفة جدا في نظره ويمكن تجنب نفقاتها إذا ما تلقى الأولياء أو من يساعدونهم في التربية تربية حسنة، ولقد عارض جون جاك روسو بشدة فكرة المدرسة الجهوية ونقد التربية المدرسية القائمة على الكتاب وفكرته هاته فكرة ثورية إيمانا بفشل الطريقة التربوية التقليدية في التعليم، ولأن الكتب المدرسية لا تعلم الطفل سوى مجموعة من الألفاظ والجدير أن يتعلم هو بنفسه، إذ يتوفر على إمكانات وقدرات وكفاءات تجعل عقله متميز عن عقول أخرى، ولعل ما حمل روسو إلى رفض محتويات الكتب المدرسية هو اعتقاده بأن العمل واللعب يعلمانه أضعافا من الدروس والحكم والتجارب مقارنة بما تمنحه إياه القراءة "يجب ألا يكون هناك كتاب آخر يتعلم الطفل منه سوى العالم وألا يرشد إلى شيء غير الحقائق، فالطفل لا يفكر حينما يقرأ، لأنه لا يتعلم إلا ألفاظا".¹⁴

وينتقد جون ديوي بدوره التربية التقليدية لأنها تقوم على الامتثال والانقياد وتلقي الأطفال من المدرسين، ويقترح فكرة التربية التقدمية التي تحرص على استغلال ميول الأطفال، ورغباتهم وإتاحة فرصة العمل والنشاط المدرسي وتمنحه كل ما يشبع حاجاته وينمي

¹² إيمانويل كانط: تأملات في التربية، مصدر سابق، ص 24.

¹³ إيمانويل كانط: تأملات في التربية، تر: محمود بن جماعة، مصدر سابق، ص 25.

¹⁴ شبل بدران: الاتجاهات الحديثة في تربية طفل ما قبل المدرسة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط2، 2002

شخصيته وقدراته إنها الطريق إلى الديمقراطية "فالشيء المهم الذي يجب أن نحفظ به في ذهننا فيما يخص إدخال أنواع متعددة من المهن الفعالة إلى المدارس هو أن بواسطة هذه المهن تتجدد روح المدرسة بكاملها، وتنال فرصة تربط نفسها بالحياة، وتصبح بيئة الطفل حيث يتعلم من العيش المباشر بدل أن تكون مجرد محل لتعليم دروس ذات صلة بعيدة ومجردة بحياة قد تقع في المستقبل".¹⁵

ويمكن تبرير وجهة نظر الفيلسوفين، فكل منهما أعطى تصورا للتربية انطلاقا من بيئته وظروفه وانتماءاته الفكرية والمذهبية، لقد كان للتربية القاسية التي عايشها روسو وشعوره بالبوأس أثرا في اتصاله الوثيق بالطبيعة، فلا غرابة من اعتبار فلسفته التربوية، فلسفة طبيعية دافع فيها بقوة عن ضرورة استغلال المواهب الطبيعية، والنمو الطبيعي للطفل كي يكتمل نموه العقلي، وكذا قوة عاطفته ورقته ومقته لتربية عصره، جعلته ينطلق من شعار أن الطفولة من طبيعة خيرة والمجتمع من طبيعة فاسدة.

هذا إضافة إلى تأثيره بجمهورية أفلاطون وفلاسفة التربية المنتمون إلى عصر التنوير من أمثال جون لوك، وكانط، وغيرهم...، وبهذا يمكن القول أن التربية الطبيعية تتجه إلى الطفل، وتجعل منه محور العملية التعليمية أكثر من اتجاهها إلى المعلم أو المدرس وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار روسو من المبشرين الأوائل بفلسفة تربوية طبيعية "أبرز روسو أيضا أهمية الجانب الوجداني في عملية التعلم، وأن تنمية الشخصية لا تقتصر على جانب المعلومات أو الجانب الفكري فحسب وإنما لابد أن ترتبط أيضا بما يجعل المشاعر والوجدان ينموان نموا سويا يمكن الإنسان من التصرف السليم في مواقف الحياة".¹⁶

¹⁵ جون ديوي: المدرسة والمجتمع، تر: أحمد حسن الرحيم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، د.س ص 41.

¹⁶ عبد الكريم علي الياماني: فلسفة التربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2004، ص 87.

وبالمقابل أثرت الفلسفة العملية الأمريكية وانتماءات ديوي المذهبية والفكرية للزعة
البراغماتية على فلسفته التربوية فمقياس الحق هو التجربة النافعة لأكبر عدد من الأفراد
كذلك التربية الجيدة والسليمة هي تلك التي تحقق الإنسان المتكامل، تمكنه الخبرة التربوية
والحياتية من حل أكبر قدر ممكن من المشاكل والتأقلم مع المستجدات، وقد نادى ديوي
"بأن يكون الطفل محورا للبداية، وهو المركز وهو الغاية من عملية التربية".¹⁷

لقد سار كانط في مشروعه التربوي على شاكلة روسو وأعجب بمؤلفه إيميل أو التربية
وتقاسم معه الاعتقاد بخيرية الطبيعة الإنسانية، وكلاهما جعل الهدف من التربية هدفا عاما
وشاملا الغاية منه تحقيق الخير والصالح والإنسانية جمعاء، كما اختار روسو تجربة المعلم
الخاص، إلا أن هذه الفكرة لم تعد نافعة في نظر كانط والسبب يرجع إلى تقاسم السلطة
التربوية بين الآباء والمربي، والطفل يجد نفسه في هذه الحالة يعاني من ضغطين وخاضع
لطرفين، الامتثال لتعاليم المربي من جهة ورغبات الأولياء من جهة ثانية، ضف إلى ذلك أن
التعليم الخاص يناسب الأسر الغنية ولا يتناسب وقدرات الأسر محدودة الدخل لذلك من
الواجب كي تؤدي التربية أكلها أن تصبح عمومية في كونها جادة وهادفة وتخضع لتخطيط
بيداغوجي، وتمكن للأطفال من الاعتماد على الذات والاستقلالية، وفي هذه الحالة يجب
حسبه إتباع القواعد التالية:

- "ينبغي ترك الطفل حرا في كل الأمور منذ الطفولة الأولى....
- ينبغي أن نبين له أنه لا يقدر على بلوغ غاياته إلا إذا ترك الآخرين يحققون غاياتهم ...
وأنه عليه بالتعلم...

¹⁷ صالح عبد العزيز، عبد العزيز عبد المجيد: التربية وطرق التدريس، ج1، دار المعارف بمصر، ط12، 1976، ص313.

- ينبغي أن نثبت له أننا نمارس عليه قسرا يقوده إلى استعمال حريته الخاصة، وأننا نثقفه لكي يستطيع ذات يوم أن يكون حرا".¹⁸

ولا تهدف التربية المدرسية إلى الحشو المعرفي وخلق عقول موسوعية بل إلى خلق عقول قادرة على التفكير فمثلا جاء على لسان كانط كل ما تعلمناه لحد الآن هو التفلسف وليس الفلسفة، فإن الهدف التربوي أيضا هو خلق القدرة على التفكير وليس تأسيس للفكر بحد ذاته، فيتعلم الطفل من المدرسة كيف يشغل قدراته ويستثمر كفاءاته داخل المدرسة والمجتمع، وعلى هذا الأساس يقسم التربية إلى تربية جسدية وتربية عقلية، وتربية خلقية، على أن يعتني الآباء والأمهات بالتربية البدنية، وهي التربية الأولية وفيها يتعلم الطفل القيم والمبادئ عن طريق القصر والإكراه أما الثانية فتتكفل بها المدرسة ويعتبر التربية العقلية ثقافة مادية لأن فيها تثقيف الاستعدادات والقدرات الطبيعية، لذلك يجمع بين الطبيعة ولحرية كون طبيعة الجسم تتفق مع طبيعة النفس في تجنب الفساد والشر، وتختلف الثقافة المادية عن الثقافة الأخلاقية "من حيث أن هذه الأخيرة تتعلق بالحرية فحسب، بينما لا تتعلق الثقافة المادية إلا بالطبيعة وتقسم ثقافة الذهن المادية إلى حرة ومدرسية، وينبغي أن تكون الثقافة الحرة لاعبا والثقافة المدرسية عملا".¹⁹

ولعل الأهمية من ذلك حمل الأطفال على الخوض في مجال العمل وتنمية الشعور به كواجب أخلاقي وكمسؤولية وتبيان قيمة وضرورة العمل بالنسبة للإنسان وأن يأخذ الأمور بجدية ولا ينظر إليها كلعبة، وإن كان اللاعب مهتما للترفيه عن النفس، "وهكذا يعطي كانط للتربية المدرسية العمومية وظيفة تنويرية بواسطة برمجتها أنشطة جادة للعمل وممارسة المهام البيداغوجية، ودفعها إلى استعمال الطفل قدراته الذاتية بشكل يخدم استقلاله في

¹⁸ إيمانويل كانط، تأملات في التربية، مصدر سابق، ص 27.

¹⁹ إيمانويل كانط: تأملات في التربية، تر: محمود بن جماعة، مصدر سابق، ص 46.

التفكير، تساهم بشكل أساسي في التغيير، وبالتدقيق في خروج الإنسان من قصوره ومن طفولته أولاً، ومن تبعيته للغير وتحرره من سلطة العادة والتقليد".²⁰

إن ما يميز التربية عند كانط عن أسلافه أو معاصريه هو جعله الهدف من التربية البيداغوجية يتمثل في تنمية القدرات الذهنية، لا جعل وظيفة المدرسة خدمة النظام الاقتصادي أو السياسي فحسب، مثلما هو الحال مع جون ديوي، إن محور اهتمام التربية المدرسية هو التكوين البيداغوجي للقدرات الذهنية، والعمل على تنميتها وهو انعكاس لفلسفته المعرفية المعبر عنها في نقد العقل الخالص، وكذا نقد العقل العملي، وتقسيم ملكات العقل إلى دنيا وعلياً تتمثل الأولى في العقل، الفهم، وملكة الحكم، أما الثانية فتتمثل في الانتباه، والتذكر، والتخيل، وينبغي تنمية هذه القوى والقدرات في آن واحد، ولا أن ننمي الواحد منها على حساب الثانية "وليس للقوى الدنيا منظور إليها في حد ذاتها أي قيمة مثال ذلك أن يمتلك إنسان ما ذاكرة قوية، لكنه يفتقر إلى أي ملكة الحكم فهو لا يكون سوى معجم حي".²¹

ويصر كانط على ضرورة تنمية الذاكرة مع الفهم في وقت واحد عن طريق حفظ الأسماء الواردة في القصص القراءة، الكتابة، تعلم اللغات، ومن أسعى أهداف التربية البيداغوجية التربية الأخلاقية كرأس الهرم التربوي الكانطي فالغاية من التربية هو بلوغ درجة الكمال الأخلاقي، لذلك من الأولى الاهتمام بتعليم الطفل القواعد والمبادئ الأخلاقية، وأن يقوم بالفعل الأخلاقي لذاته، أي الواجب من أجل الواجب لا من أجل منفعة ومصلحة ولتحقيق هذه الغاية يرفض كانط استخدام أسلوب العقاب ضد الخطأ والمكافأة لتثمين عمل الخير،

²⁰ عبد الحق منصف: الأنوار وسلطة الخبير البيداغوجي، دراسة في نظرية الثقافة والتربية عند إيمانويل كانط، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2011، ص304.

²¹ إيمانويل كانط، تأملات في التربية، مصدر سابق، ص48

فينصرف عن الشر والظلم خوفاً من العقاب، ويفعل الخير حصولاً على المكافأة، وينبغي معاملته باحتقار لأن أول غاية للتربية الأخلاقية هي تكوين طبع القدرة على التصرف وفق مبادئ "وهي أولاً مبادئ المدرسة ثم مبادئ الإنسانية، ففي البداية يمثل الطفل للقوانين والمبادئ هي أيضاً قوانين".²²

وإن الطفل ينقاد إلى الواجب بالغرائز، وحدها لأنه لا يفهم بعد معنى الواجب، بعكس الراشد الذي يمثل لها طاعة لهذا الواجب، وهنا يميز بين طاعة الطفل وطاعة البالغ ولكي تتحقق التربية الأخلاقية يجب تحويل سلطة الإكراه والإنضباط من الخارج إلى ذاتية الطفل أي من كونها سلطة خارجية إلى جعلها سلطة ذاتية عن طريق لفت انتباه الطفل إلى غايات الفعل باعتبارها قواعد عامة ثابتة تحمل طابع الضرورة والالتزام، وبمعنى آخر على الطفل أن يؤدب ذاته بذاته، ويحسن تدبير انفعالاته، والسيطرة على أهوائه وغرائزه وعلى احترام الإنسانية، والعمل بمبدأ احترام الذات والغير كواجب أخلاقي، والمغزى من ذلك ربط الأفعال الإنسانية بمبادئ أخلاقية ضمن حدود العقل للحكم عليها أخلاقياً ومن ثم تحقق التربية الأخلاقية للطفل تكويناً ذهنياً أخلاقياً وثقافياً ودينياً "ينبغي أن تجد المبادئ مصدرها في الإنسان نفسه ففي الثقافة الأخلاقية لأبد من السعي في سن مبكرة إلى تمكين الأطفال من تصورات الحسن أو القبيح، وإذا أردنا تأسيس الخلقية ينبغي تجنب العقاب، فالخلقية هي أمر في غاية القداسة والسمو".²³

وبالتربية الأخلاقية نصل إلى التربية الدينية لكن هل سندرس اللاهوت للأطفال الذين لم يتعرفوا بعد عن أنفسهم وعن العالم يجيب كانط "إلى أفضل طريقة لتوضيح، مفهوم

²² إيمانويل كانط، تأملات في التربية، مصدر سابق، ص 59.

²³ المصدر نفسه، ص 59.

الإلهية هي المماثلة بالأب الذي نعيش تحت حمايته"²⁴ وما الدين إلا مجموعة من القيم الأخلاقية نتعرف من خلالها على وجود الإله، وينبغي تمرين ملكة الحكم لدى الطفل ودفعه لتأمل الطبيعة، والجمال الكوني للتعرف على خالق هذا الكون.

4. خاتمة:

وفي الختام وكخلاصة للقول فإن التربية استطاعت أن تنتقل البشرية من حال إلى حال من الهمجية إلى الاستقامة، ومن التوحش إلى النظام والتمدن، وما يميز المشروع التربوي الكانطي في حديثه عن دور التربية المدرسية وأهدافها البيداغوجية، هو أنه مشروع تنويري أوكل للعقل مهمة التشريع التأسيس لفلسفة تربوية عملية، فإذا كان معنى التنوير هو تحرير الإنسان من قصوره الذاتي، فإن هذا المعنى وجد ضالته في التربية الكانطية المميزة عن المشاريع التربوية بتنمية القدرات الذهنية والملكات العقلية بما فيها الدنيا والعليا في ظل الحرية.

كما تميزت مهمة التربية الكانطية بكونها نشاط إنساني دؤوب ومستمر يصلح لأي زمان ومكان، متحرر من قبضة التفكير في الراهن والحاضر إلى استشراف المستقبل وتبنيه كهدف أسمى للتعليم والتربية، لذلك أولى الاهتمام والعناية بالخبر البيداغوجي كفاعل ومحور العملية التربوية باستحضار الغايات القصوى من التربية بما فيها الغاية الأخلاقية والدينية كنتيجة حتمية لما سبقها.

وبالمعنى الكانطي الأفعال التربوية ليست إمبريقية تخص جيلا بعينه وإنما هي أفعالا كونية تشمل النوع البشري قاطبة، وما يميز التربية عنده أنها جعلت من الإنسان كائن أخلاقي يتعالى عن الصفة الحيوانية.

²⁴ إيمانويل كانط، تأملات في التربية، مصدر سابق، ص 75.

5. قائمة المراجع:

- أفلاطون: القوانين، تر: محمد حسن ظاظا، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1986.
- إيمانويل كانط: تأملات في التربية، تر: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، صفاقص، تونس، ط1، 2005.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنات، د.ط 1978.
- جون جاك روسو: إميل أو التربية، تر: عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة القاهرة، مصر، د.ط، 2015.
- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، تر: أحمد حسن الرحيم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، د.س.
- ربيع محمد، طارق عبد الرؤوف عامر: الديمقراطية المدرسية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ط، 2008.
- شبل بدران: الاتجاهات الحديثة في تربية طفل ما قبل المدرسة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط2، 2002.
- صالح عبد العزيز، عبد العزيز عبد المجيد: التربية وطرق التدريس، ج1، دار المعارف بمصر، ط12، 1976.
- عبد الحق منصف: الأنوار وسلطة الخبير البيداغوجي، دراسة في نظرية الثقافة والتربية عند إيمانويل كانط، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2011.
- عبد الرحمان بدوي: فلسفة الدين والتربية كانت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
- عبد الكريم علي الياماني: فلسفة التربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2004.
- Maxime Lebeuf : Le Sens De L'éducation Et De La Disipline Dans Le cadre De La Philosophie D'Emmanuel Kant, Mémoire Présenté A' L'université Du Québec A Troi - Rivières, Hiver, 1998.